مجلة دراسات في اللّغة العربية وآدابها، نصف سنويّة دوليّة محكّمة،
السنة الثامنة، العدد الخامس والعشرون، ربيع وصيف ١٣٩٦هـ. ش/٢٠١٧م
صص ٥٣- ٧٦

مواجهة الاستشراقيّة الاستعماريّة في رواية «أرض السواد» لعبد الرحمن منيف

فاطمة پرچگاني* وفرهاد رجبي** وميلاد درويشي***

الملخّص

هناك أهداف متعدّدة لمفهوم الاستشراقيّة بوصفه مظهرا للعلاقة بين الشرق والغرب، منها السيطرة والاستعمار، إضافة إلى الجهود التي تبذلها الاستشراقية للتعريف بالشرق. ولهذا السبب يمكن القول إنّ الاستشراقيّة الاستعماريّة، عبارة يعرفها الكثير من المثقّفين والكتّاب الشرقيين الذين يهتمّون بقضيّة أزمة الهويّة وبسبل حلّ هذه الأزمة.

إنّ الاهتمام بالصورة التقابليّة يظهر في أشكال مختلفة، من أهمّها: استخدام الطاقات والامكانات المتوفّرة في الأدب خاصّة في النوع الأدبيّ الحديث أي الرواية. رواية "أرض السواد" من نماذج هذه المواجهة، يسعى فيها الروائيّ "عبدالرحمن منيف" ليخلق الوقائع والشخصيّات التي تمهّد لحضور المستعمِرين والمستعمَرين خلال أحداث الرواية، وذلك مع الحفاظ على الأطر الفنّية والتقنيّات الروائيّة. إنّه في النهاية يذكر بأهداف الاستعمار وبكيفيّة مواجهة الشرقيين لها. تقدّم شخصيّة "ريتش" في هذه الرواية دور الغرب المستعمِر كما أنَّ "داود باشا" يؤدّي دور الشرق المستعمَر. تشير نتائج الدراسة إلى أنّ التيّارات الاستعماريّة إذا واجهها الشرقيون بالمعرفة وبالمواجهة التقابليّة، لن تنجح في تحقيق أهدافها التوسّعيّة في الشرق.

كلمات مفتاحية: الاستعمار، الشرق، عبد الرحمن منيف، المواجهة التقابليّة، أرض السواد.

---

* – أستاذة مساعدة في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة الخوارزمي، طهران، إيران.(الكاتبة المسؤولة) fparchegani@gmail.com

** – أستاذ مشارك في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة جيلان، إيران. farhadrajabi133@yahoo.com

*** – ماجستير في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة الخوارزمي، طهران، إيران.

تاريخ الوصول: ١٣٩٥/٠٦/٠٨هـ.ش= ٢٠١٦/٠٨/٢٩م تاريخ القبول: ١٣٩٦/٠٣/٠٧ هـ.ش= ٢٠١٧/٠٥/٢٨م

المقدّمة

تُعدّ العلاقة بين الشرق والغرب من أبرز المحاور في الدراسات والأبحاث الاجتماعية والثقافية، إذ تعود بداية هذه العلاقة إلى القرن الثالث قبل الميلاد، عندما دخل الإسكندر المقدوني إلى الشرق من أجل تحقيق حلمه بإقامة الإمبراطورية الهلينة أو اليونانة. وقد كان هيرودوت، المؤرّخ اليوناني، في رحلته المشهورة إلى مصر أوّل شخصيّة غربيّة تعمّقت في الحياة الاجتماعيّة والثقافيّة المصريّة الشرقيّة. ومن بعده، ومع سيطرة إمبراطورية الروم على الشرق، اهتمّ المؤرّخون الروم بأحداث الشرق وأوضاعه السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة والثقافيّة. وفي القرن السادس عشر انطلق الفرقاء الإسبان نحو الشرق لاكتساب الثروات، وفي القرنين السابع عشر والثامن عشر توجّهت بريطانيا إلى جزر الهند الشرقيّة. والملاحَظ في هذا السفر أنّ الأقوام المهاجرة حملت معها فكرها وروحها وفنّها وثقافتها بقصد الهيمنة الفكريّة والثقافيّة على هذه البلدان، إضافة إلى السيطرة العسكريّة والسياسيّة وقد أدّى ذلك بالطبع إلى نوع من التأثير والتأثّر[١].

ومن نتائج العلاقة بين الشرق والغرب في مجال النقد والأدب، تشكيل تيّاري "ما بعد الاستعماريّة" و"الاستشراقيّة". وكانت بداية ظهور نظريّات مابعد الاستعماريّة في العقد السادس من القرن العشرين؛ عندما بدأ مفكرو المستعمرات السابقة إعداد خطاباتهم بهدف مواجهة الخطابات الاستعماريّة. هذه الخطابات ما بعد الاستعماريّة انشغلت بالتعبير عن تجارب المجموعات التى تقع تحت سيطرة الاستعمار بدلاً من تجربة المستعمِر، وقاموا بإعطاء حقّ التعبير عن النفس للتابع -غير البيض وغير العرب الذين كانوا يقعون تحت قيادة الحكم الاستعماري.

في مجال اللغة العربية وآدابها، وبخاصّة في الرواية، ألّفت آثار متعدّدة متأثّرة بهذا التقسيم. والوجه المشترك بين معظم هذه الروايات هو المقاربة التقابليّة مع نظريّة الاستشراق الاستعماريّة. من هذه الآثار رواية "أرض السواد" لعبدالرحمن منيف[٢] والذي قدّم فيها بقالب سرديّ، وباستخدام العناصر الأصلية لتيّار

---

[١]- نبيل راغب، **موسوعة النظريّات الأدبيّة**، ص٢٠.

[٢]- ولد الروائيّ العربي المعاصر عبدالرحمن منيف في الأردن سنة ١٩٣٣ من أب سعودي وأمّ عراقيّة. درس الحقوق في جامعة بغداد، وانخرط في النشاطات السياسيّة في العراق، لكنّه طُرد بعد حلف بغداد، ثمّ واصل دراسته في القاهرة وتخرّج فيها عام ١٩٥٧. سافر إلى أوروبا وحصل على الدكتوراه في العلوم الاقتصادية من جامعة بلغراد عام ١٩٦١، وانتقل بعد ذلك إلى سوريا، واشتغل في الشركة السوريّة للنفط، ثمّ انتقل إلى بيروت عام ١٩٧٣. وكان خلال هذه السنوات يعمل في الصحافة، لذلك عاد إلى العراق سنة ١٩٧٥م، وعمل رئيساً لتحرير مجلّة "تنمية النفط" الاقتصادية. توفّي منيف عام ٢٠٠٤ في دمشق.حصل منيف على جائزة سلطان بن علي العويس الثقافية للرواية عام ١٩٨٩، إضافة إلى جائزة القاهرة للإبداع الروائيّ عام ١٩٩٨. (محمّد القشعمي، **ترحال الطائر النبيل**، ص٣٢؛ أحمد الزغبي، **مقالات في الأدب والنقد،**

الاستشراقيّة الاستعماريّة ليطرح هذه التقابليّة عبر قضايا متعدّدة مثل التنميط، والمركز– الهامش، والمسيطَر عليه، والثقافة المحلّية، والمرأة، والسيطرة (Hegemony) ويرسم الوجه التقابلي لهذه المواضيع التي تقدّمها الشخصيّة الرئيسة، مع الحفاظ على الإطار الفنّي، وبالاستناد إلى الأحداث التاريخيّة والسياسيّة، لذلك سيتمّ التطرّق إلى هذه الوظائف بعد تقديم ملخّص عن الروائيّ وروايته.

بالنظر في حياة منيف، نجد أنّه رجل ترافقه هواجس القضايا الاجتماعيّة والسياسيّة، ويدافع عن القوميّة العربيّة ويبذل جهوداً في سبيل مواجهة الاستعمار. تختلط حياته السياسيّة والأدبيّة بشكل كبير، ويبدو أنّه انطلاقاً من هذه العلاقة، يهدف من كتابة الرواية، إلى بيان الوعي وإظهار التحارب، إضافة إلى عرض الإبداع الفنّي. لمنيف دور كبير في مجال الرواية وتحوّلاتها، يؤكّد في آثاره على الواقعيّة ويحاول استناداً إلى أفكاره النقديّة أن يساهم في توعية الناس من خلال إظهار آرائه السياسيّة. موضوع المجتمع العربي وتطوّراته، الحكومات وتعاملها مع الناس، والتشكيلات الحكوميّة، هي من المواضيع التي يقدّمها الكاتب في رواياته[١].

"أرض السواد" رواية عن مرحلة من تاريخ الأراضي العربيّة التي تتكرّر باستمرار. يحاول الكاتب من خلال شبكة التواصل بين شخصيّاته أن يصوّر تقابل الغرب المستعمِر مع الشرق المستعمَر بشكل عامّ. وقد أراد الروائيّ، عن طريق التعريف بشخصيّة القنصل البريطاني في العراق "ريتش" وتصرّفاته، أن يرسم الصورة الحقيقيّة للغرب ويكشف عن القصد الحقيقي لخدماته. تصوّر هذه الرواية التصادم بين الحضارتين: الشرقيّة، والغربيّة، في قالب المواجهة بين والي بغداد "داود باشا" الذي يحلم بعودة العراق قويّاً وريتش الذي يمثّل الاستعمار البريطاني. يجب النظر إلى رواية "أرض السواد" كرواية تاريخية، لأنّ الكاتب استخدم لكتابتها مستندات تاريخيّة كثيرة[٢].

هدف البحث، ضرورته ومنهجه:

يهدف هذا البحث إلى بيان كيفية بلورة مواجهة الاستعمار في الرواية، وتحديدًا في "أرض السواد"، كما يهدف إلى تبيين المظاهر الجمالية فيها. فمن أجل الوصول إلى هذا الهدف، نحاول الإجابة عن سؤالين أساسيين، هما: كيف تنعكس أوضاع الشرق وخاصّة مواجهته الغرب في الرواية؟ وما هي العوامل والأسباب التي تثير الحركات الشعبية والمواجهة التقابلية ضدّ الاستعمار؟

ص٦١٥؛ ماهر جرار، **عبدالرحمن منيف سيرة وذكريات**، ص١٩–٢٠.)

[١]– شاكر النابلسي، **مدار الصحراء: دراسة في أدب عبدالرحمن منيف**، ص٢٤.

[٢]– إبراهيم صالح، **أزمة الحضارة العربية في روايات عبدالرحمن منيف**، ص١٦٤.

قبل الإجابة عن هذا السؤال، نفترض أنَّ للفنَّ وللرواية دوراً حاسماً في التعبير عن الأوضاع الراهنة. كما أنّ قضية الاستشراقية من القضايا الهامّة في الأدب الشرقي في فترة ما بعد الاستعمار، وأنّ الروائي عبدالرحمن منيف يسعى من خلال خلق الأحداث والشخصيات إلى تصوير انعكاس هذا الأمر المهمّ على مستوى الحياة العربية.

أمّا ضرورة البحث، فتكمن في أنّ تاريخ الاستعمار في المشرق، وخاصّة في البلدان العربية، قد اندمج بشكل كبير في حياة العامّة من الناس؛ اندماجاً يمكن أن نتوقّف عنده في الأدب الحديث الذي يرى من وظائفه تصوير الحياة الواقعية، يحاول عكس الأفعال وردّات الفعل في هذا المجال، يحافظ على الإطار الفنّي للأدب في الوقت نفسه.

ويقوم منهج البحث على وصف الأحداث التاريخية وتحليلها؛ بمعنى أنّنا نقوم برصد الأحداث والحوارات وفقاً للتطوّرات التاريخية، ثمّ ننتقل إلى تبيين القضايا والآراء على أساس نظرية الاستشراق وضروريات المجتمع مابعد الاستعماري.

خلفيّة البحث:

كان عبدالرحمن منيف موضوعاً لدراسات متعدّدة في اللغتين الفارسيّة والعربيّة، منها: مقال "وظيفة المضمون الانتقاديّة في رواية النهايات لعبدالرحمن منيف" بقلم "عبّاس گنجعلي" و"سيد أحمد محمد نيا"(١٣٨٣ش) نشر في مجلة "الجمعيّة العلميّة الإيرانيّة للغة العربيّة وآدابها". يستهدف هذا البحث دراسة المضامين المهمّة للرواية، ويستنتج أنّ الروائي استخدم مضامين عميقة استناداً إلى تجربته السياسية والعلمية، وأضفى لهذه المضامين طابعاً انتقاديّاً إصلاحيّاً[١]. كما نشر مقال لـ" معصومه شبستري وأحمد رضا صاعدي" (١٣٩٠ش) بعنوان "البناء الفنّي في خماسيّة مدن الملح الروائيّة لعبدالرحمن منيف" في مجلّة الأدب العربيّ لجامعة طهران. تشير نتائج المقال إلى أنّ الروائي عمد إلى إتمام المعنى الروائي في كلّ جزء من الخماسية، وأنّ عناوين الأجزاء تعكس مضمون كلّ جزء لتعبيره عن الإشكالية التى يحاول الجزء طرحها، كما أنّ منيفاً تأثر في نظرته إلى اللغة الروائية بمذهب باختين. إضافة إلى أنّ الخماسية بدأت تتعامل مع

[١] – عباس گنجعلي وسيد محمد أحمد نيا، **كاركرد انتقادي درون‌مايه در رمان فرجام‌ها اثر عبدالرحمن منيف**، مجلّة الجمعية العلمية الإيرانيّة للغة العربية وآدابها، ص٨٨.

المكان على نحو لم يسبق للروائيين التقليديين أن تعاملوا معه[١]. وفي المجلّة نفسها نشر بحث "صورة الآخر العربي والفارسي في الروايتين الفارسيّة والعربيّة: أحمد محمود وعبدالرحمن منيف نموذجاً" بقلم "يدالله أحمدي ملايري"(١٣٩٠ش). تحدّد نتيجة البحث أنّ النظرة الإنسانية لم تتجلّ لدى الكاتبين في رسم صورة تحتوي على التعاطف والإسقاط فحسب، بل تتجلّى أيضاً في الموضوعية التي جعلتهما يرسمان صورتهما السلبية للآخر بعيداً عن التشويه، ممّا يكشف للمتلقي عن تجذّر الثقافية النقدية لدى الكاتبين، فهما يسائلان الآخر دون أن ينالا منه ويهينانه[٢]. أمّا رواية "أرض السواد" فلم تحظ باهتمام كاف من الباحثين في اللغة الفارسيّة.

وفي العربية هناك مقال بعنوان "قناع السرد في أرض السواد" بقلم "مدحت الجيار" نشر في مجلّة "فصول" في شتاء ٢٠٠٥، الرقم ٦٥ صص ٢٤٧– ٢٦٠. يدرس كاتب المقال البناء الفنّي للرواية، ويؤكّد أنّ رواية منيف تشمل المكوّنات والعناصر الخاصّة بالرواية الحديثة، وذلك عن طريق استشهادات من نصّ الرواية. وفي مقال بعنوان "قراءة في أعمال الدكتور عبدالرحمن منيف الروائيّة" للباحثة "مؤمنة بشير العوف" (١٩٩٤م)، تعالج الكاتبة موضوعات أعمال منيف بشكل عامّ، وتستنتج أنّ هناك بعض التناقض في الطرح العامّ لموضوعات منيف، فهو ضدّ الشيء وضدّ نقيضه في الوقت نفسه. وليس هناك شيء واحد هو معه. ويمكن اعتبار ما ورد في رواياته تصويرَ حالاتٍ إنسانية تتقارب وتتنافر؛ أي إنّ شخوصه تتحرّك ضمن شروط موضوعية خاصّة بها. ونشر مقال آخر لـ "عبدالله عبد البديع" بعنوان "اختيار الحرّيّة مسؤوليّة الالتزام عند عبدالرحمن منيف" في مجلّة "الإبداع" (١٤٠٨ق). يعالج الكاتب المستوى الدلالي لروايات منيف، ويحاول تقديم تحليل مناسب عن الإيدئولوجيا المسيطرة على كتاباته، وفي النهاية يعتبر أنّ منيفاً كاتب يتمتّع بميزات الواقعية والالتزام في العالم المعاصر.

---

[١] – معصومه شبستري وأحمد رضا صاعدي، **البناء الفنّي في خماسيّة مدن الملح الروائيّة لعبدالرحمن منيف**، مجلّة الأدب العربيّ، ص٢٥.

[٢] – يدالله أحمدي ملايري، **صورة الآخر العربي والفارسي في الروايتين الفارسيّة والعربيّة: أحمد محمود وعبدالرحمن منيف نموذجاً**، مجلّة الأدب العربي، ص٣٨٦.

ما يميّز مقالنا هذا من المقالات التي ذكرناها في خلفيّة البحث يكمن في اهتمام المؤلّفين بموضوع الاستشراقيّة في رواية أرض السواد، خاصّةً حينما نرى أنَّ هذه الرواية مجالٌ للتعبير عن رؤية الكاتب المناضل عند مواجهته التقابليّة مع قضية الاستشراقيّة.

محاور الاستشراقيّة الاستعماريّة في رواية أرض السواد

درس منظّرو ما بعد الاستعماريّة كيف خلقت ثقافة الغرب والمستعمِرين الفرد التابع المستعمَر عن طريق النصوص المختلفة[١]. في هذا الصدد، تطرح مقولة الاستشراقيّة (Orientalism) في مجال النقد ونظريّاته. ومن أبرز تعاريف هذا المصطلح تعريف إدوارد سعيد، الذي يرى أنّ «الاستشراقيّة هي مجموعة السبل النصّيّة أو أشكال فرض السلطة والعلم التي تستخدمها الثقافات الغربيّة البريطانيّة- الأوروبّيّة لإيجاد منطقة من العالم بعنوان الشرق»[٢]. كما يقول إنّ الاستشراق هو أسلوب تفكير يقوم على التمييز الوجودي والمعرفي بين ما يسمّى "الشرق" وما يسمّى "الغرب"[٣]. وهو «أسلوب تمييز. وهم يسمّون الشرق بالآخَر أو التابع. هذا الآخر أو التابع؛ غير المعروف والمسيطَر عليه يقع في مقابل العالم الإنكليزي الأوروبّي المعروف. «فأساس الاستشراق كأيّ شكل من أشكال العنصريّة أو القوميّة، يقوم على أنّنا موجودات معروفة، أمّا الآخَر فهو مستغرَب في ذاته»[٤]. الاستشراق مصطلح أكاديمي يستخدم في تاريخ الفنّ وفي الدراسات الأدبيّة، والجغرافيا والدراسات الثقافية. ويصف مقاربة نقدية لتمثيل الشرق؛ من الثقافات الشرقيّة ومنطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا وجنوب غرب أسيا وجنوب شرق آسيا ممثّلة بـ "المعرفة الأوربيّة من الشرق" التي أنشأها الفنّانون والكتّاب في أوروبا الغربيّة. خاصّة الرسم الاستشراقي الذي كان يمثّل"الشرق الأوسط" كان نوعاً من الفنّ الأكاديمي في القرن التاسع عشر[٥].

«الدراسات الأدبيّة الإنسانية كانت لفترة طويلة تمثل مقاومة للفكرة القائلة إنَّ الأدب، أو على الأقل تقدير الأدب الجيد، له صلة بالسياسة على أساس أن الأدب إمّا ذاتي جداً، فردي وشخصي وإمّا عالمي جداً وفائق حتى يوصم هكذا. وفقاً لذلك فإنّ النقد الأدبيّ لم يتعامل مع العلاقة بين الاستعمار والأدب

---

١ – مري كليگز، **درسنامه نظريه ادبى**، ص٢١١.

٢ – **المصدر نفسه**.

3 - EdwardSaid, *Orientalism*, p2.

٤ – مري كليگز، **درسنامه نظريه ادبى**، ص٢١١.

5 - Nicholas Tromans, *he Lure of the East, British Orientalist Painting, p6.*

حتى عهد قريب، واليوم يبدو أنّ الوضع ينقلب بسرعة مع عدد من محلّلي الخطاب الاستعماري إن لم يكن معظمهم، والذين يأتون بثقافة في الدراسات الأدبيّة أو صلة منهجية بها»[١].

نظراً إلى العلاقة العلوية التي كان الغرب يبحث عنها في الشرق دوماً، يبدو أنّ تيّار الاستشراقيّة وقع في مستوى التقسيم إلى "الأنا" والآخر"، ولهذا السبب امتزجت العقلية الشرقيّة للتيّار الاستشراقي بسمة الاستعمار وأوجدت عبارة الاستشراقيّة الاستعماريّة. هناك عدة محاور تتبيّن من خلالها محاور الاستشراقيّة الاستعماريّة، نشير إلى بعضها ونجعلها أساساً لتحليل الوجهة التقابلية في رواية أرض السواد؛ فهي على التوالي:

التنميط أو الصورة الشرقيّة عن الشرق

التنميط يعني أنّ التصوير الذي رسمه الغرب عن الشرق سطحي وموجز في أغلب الأحيان؛ فهو يعمّم الخاصّة الواحدة على الشرق بأجمعه مع اتّساعه وتنوّعه، وهذا من الأمور التي انتقدها الباحثون المعارضون للاستعمار. كما أنّ مصطلح "المستشرق" يظهر كيف أنّ الباحث الغربي يُعدّ مستشرقاً بمجرّد معرفته بلغة إحدى الشعوب الشرقيّة. يقول "إدوارد سعيد": «يمكن اعتبار الباحث الاستشراقي خبيراً عامّاً (مع حجم كبير من المعرفة المتخصّصة)، يتمتّع بتخصّص في صياغة العبارات الجامعة. أقصد بالعبارة الجامعة أنّه عند تدوين أفكار بسيطة نسبيّاً وصياغتها كالقواعد العربيّة أو كموضوع الدين في الهند، نتصوّر أنّه يصوغ عبارات عن الشرق كلّه»[٢]. من وجهة نظر سعيد، يشمل الاستشراق ثلاثة أقاليم، الثالث منها هو التنميط وهو «إعطاء صورة معيّنة عن شيء للمدى الطويل يوجِد الأنماط والإيدئولوجيا الكلّية المتعلّقة بالشرق بمنزلة "الآخَر"، والذي أحدثته الأجيال المتوالية من الباحثين الغربيين ويحتوي أساطير عن كسل الشرقيين وخداعهم وتصرّفاتهم غير المعقولة، وتكرار مثل هذه التصرّفات وتكذيبها»[٣]. كما أنّ الاستشراق حسب قول إدوارد سعيد "ليس مجرّد موضوع أو مجال سياسي يتجلّى بصورة سلبيّة في الثقافة أو البحث العلمي أو المؤسّسات... بل إنّه الوعي الجغرافي السياسي المبثوث في النصوص العلمية والاقتصادية والاجتماعية والتاريخية واللغوية[٤]، لذلك وبشكل عامّ «كانت وظيفة هذه المقاربة أن يروّج معتقدات نمطية

---

[١] – آنيا لومبا، **في نظريّة الاستعمار و مابعد الاستعمار الأدبيّة**، ص٧٨.

[٢] – إدوارد سعيد، **شرق شناسي**، ص٤٥٥.

[٣] – رامان سلدن، پيتر ويدوسون، **راهنماى نظريه ادبى معاصر**، ص٢٣٩.

3-Edward Said, *Orientalism*, p12.

عن الشرق، ولم يكن يدرك تفاصيل الحياة في هذه المنطقة بشكل صحيح، وفي النهاية كان يصوّر هذه المنطقة في قالب بسيط وسطحي يسهل إدراكه لسكّان الغرب»[١].

سعت النصوص الأدبيّة ما بعد الاستعماريّة إلى تخريب الأنماط الغربيّة، ويمكن عدّ "أرض السواد" من هذه الأعمال. في هذه الرواية تظهر عمليّة التنميط من خلال "ريتش"، ثمّ يتطرق منيف إلى تفاصيل حياة الناس، ويجعل الأوصاف والخصوصيات الشرقيّة المعقولة في مقابل الأنماط المصطنعة والتصوير الكلّي الذي يقدّمه ريتش يمكن البحث عن التنميط في معظم حوارات ريتش، هي التي ترافق كثيراً من الإساءة والتحقير، كما نرى في رواية أرض السواد:

«فأهل هذه الولاية، كما قال لنفسه، يشبهون الأطفال أيّام العيد، أو في مواجهة أشياء جديدة أو غير متوقّعة. ينفعلون بسرعة، يصخبون وبعض الأحيان يجنّون»[٢].

هذا المقطع من كلام ريتش ينسب الأحاسيس اللامعقولة والانفعالية للشرقيين ويصوّر شخصيّتهم بالطفولية، و من خلال ذلك، ينسب، وبشكل ضمني، التصرّف المعقول والنضوج إلى الغرب. يعمّم ريتش هذا الكلام عن الشرق في وقت لم يكن فيه سوى شابّ صغير لم يمض على دخوله العراق إلاّ فترة قصيرة. وهذا هو الأمر الذي تحدّث عنه إدوارد سعيد وهو أنّ: «البلدان المستعمَرة كانت ذليلة وسلبيّة وتُعتبر "الآخَر" لكي يُقدِّم تصويراً إيجابياً ومتحضّراً عن المجتمع البريطاني. بتعبير سعيد، يتمّ تجريد الناس المستعمَرين من الشأن الإنساني عن طريق مجموعة من الصور الكلّية التي كانت تنسب إليهم في النصوص الاستعماريّة»[٣].

يستمرّ هذا النوع من التنميط لدى ريتش ليصوّر ضرورة وجود دولة استعماريّة ويتحوّل إلى خطاب نصّي[٤] شيئاً فشيئاً؛ «الاستشراق يتحوّل إلى الخطاب عندما يبدأ بإيجاد الأنماط عن الشرقيين والشرق بشكل منظّم. أنماط مثل الحرارة والغبار، الأسواق المزدحمة والإرهابيين وعاهرات البلاط، والحكّام المستبدّين

---

[١] – مايكل رايان، **درآمدى بر نقد**، ص١٣٧.

[٢] – عبدالرحمن منيف، **أرض السواد**، ج١، ٢٥٨.

[٣] – آزاده شاهميرى، **نظريه و نقد پسا استعمارى**، ص٦٧.

[٤] – يجب أن نعرف أنّه في أيّامنا هذه يُعَدُّ هذا اللفظ معادلاً للقدرة؛ "أينما وجدت الدكتاتوريّة، ووجد المكر والرياء والسريّة، وجد الخطاب أيضاً. الخطاب المخدِّر والمهدِّم والمراوغ الذي يمكنه أن يكون أيضاً مستيقِظاً ومحارباً ومعترضاً." (على اكبر اميني، **گفتمان ادبيات سياسى ايران**، ص٢٤.)

الآسيويين، والمحلّيين الطفوليين، والشرق الغامض المليء بالأسرار... هذه الأنماط توكّد بانتظام الموقع الأعلى للغرب في المقارنة بالموقع الأدنى للشرق، وتؤيّد ضرورة وجود الدولة الاستعماريّة وفائدتها»[١].

بناء على ذلك، نشاهد في كثير من الأحيان عمليّة التنميط من قِبل ريتش عن الشرق؛ وهو ليس سوى عسكري، لكنّه يقدّم آراءه بوصفه عالم اجتماع أو عالِم إنسان ماهر:

«هؤلاء الشرقيون ملتبسون ومجبولون بالفوضى والتناقض، لا تميّز فيهم الغني والفقير، أيّهم الطيّب وأيّهم الماكر، ومن هو الفرح ومن هو الحزين. بل أكثر من ذلك تبدو عليهم الغبطة حين يوقعونك في خطأ التمييز، أو لم تسعفك فراستك بالمقدار الكافي لتحديد الصفات والمراتب!»[٢].

في مقابل هذا التصوير، «وظيفتنا، ليست إظهار تزلزل نمط الاستشرق فحسب، بل –وبشكل مصيري–الامتناع عن الفرح الناتج عن وجود نمط غربي»[٣].

يتّخذ منيف موقفاً اتجاه التنميط هذا، عن طريق الكشف عن تفاصيل حياة الناس في العراق. وبمجرّد أن يصف في مقطع تنميط القضايا من قِبل ريتش، يسعى لوصف مدلول هذا النمط عند العراقيين في صفحات كثيرة عن طريق وصف واقعي، ويبتعد في الوقت نفسه عن تكرار خطأ التنميط عن الغرب. نجد هذا الموضوع في بداية الرواية في المقاطع التي يقوم فيها الكاتب في المقدّمة المتشكّلة من ثمانين صفحة بالفحص الدقيق عن تاريخ يبدو غير ضروري في الظاهر، وهو وصف الفترة التي توفّي فيها والي العراق الكبير "سليمان باشا"، ولا يتوقف خلفاؤه عن أيّ مؤامرة للوصول إلى السلطة. يبتعد الروائيّ عن التنميط والكلام الكلّي الاستشراقي ويعارضه، ولا يقبل أن يتمّ وقوع كلّ هذه الاحداث تحت لفظة "الفوضى".

تحليل قضية المركز والهامش

إنّ انتشار الإمبريالية والاستعماريّة أسهم في خلق القوى العظمى التي كانت في معظمها من الكتلة الغربيّة[٤]، وهو بناء غير متكافئ إذ جعلت الدول المستعمِرة في المركز، وهمّشت المستعمَرين. "تصرّف الغرب

---

[١] – ليلا گاندى، **پسا استعمار گرايى**، ص١١٤– ١١٥.

[٢] – عبدالرحمن منيف، **أرض السواد**، ج ١، ص٢٦٠.

[٣] – ليلا گاندى، **پسا استعمار گرايى**، ص١١٧.

[٤]– ليس المقصود بالغرب، الغرب الجغرافي، بل الغرب الاقتصادي. يقول جلال آل أحمد في هذا المجال: "الغرب يعني الدول الشبعانة والشرق يعني الدول الجائعة. بالنسبة إليّ تُعدُّ دولة أفريقيا الجنوبية قطعة من الغرب، وإن كانت تقع في أقصى جنوب أفريقيا. ومعظم دول أميركا اللاتينية جزء من الشرق." (آل احمد، ١٣٨٦: ص١٩)

دائماً على أنّه المركز، والشرق هو الآخَر المهمَّش الذي يؤيّد بوجوده مركزيّة الغرب وامتيازه[١]. إنّ «الغرب بوساطة الاستعمار و"بسبب تنقّله وعدم استقراره المروّع، يحمل معه التجربة العاطفية المحزِنة الناتجة عن التهميش للشرق»[٢].

تشكّلت المقاربة ما بعد الاستعماريّة بهدف هدم البنية المتمثّلة في تجاهل الشرقيّين المهمَّشين؛ إذ تسعى هذه النظريّة عن طريق النصوص الأدبيّة والاهتمام بسكّان العالم الثالث الذين ذاقوا طعم التهميش لتهدّم البنية غير العادلة، لذلك «تحاول إعطاء أداة للظهور من جديد وإمكانيّة التحدّث للآخرين الذين هُمّشوا نتيجة للقمع الثقافي والسياسي والاقتصادي وغيرها»[٣]. كما أنّ نقّاد مابعد الاستعمار يبذلون جهودهم من أجل اللامركزية وجلب الأنظار إلى الأصوات المهمَّشة. ويهدفون إلى تفكيك الروايات المتعدّدة والمحوريّة للتاريخ والثقافة والمجتمع، وإيجاد مزيج متكثّر وواسع من الرؤية الكونية والهويّات والثقافات الممزَّقة[٤].

أمّا جعل الهامش في المركز والاهتمام بالموضوع المتجاهَل، فهو نتيجة تأثير حركة مابعد البنيوية على الدراسات مابعد الاستعماريّة وعلى منظّريها. وبناء على ذلك، اقترض الباحثون في فرع الدراسات المتعلّقة بالمسيطَر عليه من نظريّات مابعد البنيويّة المتعلّقة بدريدا والتي تُعدُّ الهامش أهمّ من المتن والمركز، وأعطوا اعتباراً وأهميّة خاصّة للتابع والمسيطَر عليه ووضعوا الموضوع الهامشي أو التابع في مركز متن دراساتهم[٥].

مقاربة عبدالرحمن منيف مع هذه المسألة تنسجم بقوّة مع النظرة مابعد الاستعماريّة؛ إذ يحاول عن طريق التطرّق إلى الناس المستعمَرين وجعلهم في مركز الاهتمام، أن يقلب موقعهم الهامشي ويعارض نظريّة "المركز- الهامش". يتحدّث الروائيّ في مقاطع قصيرة عن الموقع المركزي المتعلّق بالقنصلية البريطانية في العراق:

«ومهمّة "ريتش" منذ أن وصل إلى هذه المدينة "بغداد" أن يكون مركزاً لكلّ شيء، ليشعر الجميع أنّه لا يمكن حدوث أمر أو استمراره دون موافقته، ليس لبراعته فقط، بل ولأهمّية الدولة التي يمثّلها»[٦].

---

[١] – يوهانس ويلم برتنز، **نظريه ادبى**، ص٢٦٢.

[٢] – **المصدر نفسه**، ص٢٦٤.

[٣] – آزاده شاهميري، **نظريه و نقد پسا استعمارى**، ص١٣٠.

[٤] – **المصدر نفسه**، ص١٣١.

[٥] – **المصدر نفسه**، ص١٥٣.

[٦] – عبدالرحمن منيف، **أرض السواد**، ج٢، ص٩٧.

وفي مكان آخر: "الباليوز "القنصلية" كما أطلق عليها الناس في بغداد، تضاهي السراي، بل وتتفوّق عليها في كلّ شيء: التأثير، العلاقات، الأهمّية، ومعرفة كلّ ما يدور في المدينة[١].

يتطرّق منيف إلى أهمّية القنصلية البريطانية وميل الناس إليها، ثمّ يصوّر "داود" ومقرّه، ويخصّص صفحات كثيرة لداود وسكّان بغداد ليقلب موقع المركز- الهامش بشكل كامل، حيث تقع بغداد مع جميع سكّانها —من جميع الطبقات- في مركز الاهتمام ويُهمَّش الاستعمار والقنصلية؛ على سبيل المثال، بعد المقطع المذكور أعلاه، وتماماً في الوقت الذي يُتوقَّع أن تختصّ الصفحات المقبلة أيضاً بالقنصلية-لأنّها تحوّلت لمركز الاهتمام- يترك باليوز ويوجّه اهتمامه نحو الناس العاديين ومشكلة داود.

تُطرح في الدراسات مابعد الاستعماريّة مسألة أنّ الغرب قام بتحقير الشرق ودفعه إلى الهامش. نرى هذا الموضوع في دراسات النصوص الأدبيّة الغربيّة أيضاً؛ أمّا موقف منيف اتجاه هذه المسألة فهو مقابلته لها. على سبيل المثال في الصفحة ٩٤ من الجزء الأوّل في الرواية يشير إلى أنّ باليوز يتجاهل الناس وشؤون حياتهم، ويتطرّق بعده مباشرة إلى التصرّفات الذكية لداود الذي يتجاهل القنصلية. يُعطي الكاتب دوراً أقوى لداود وللناس الذين تمّ تجاهلهم، ليقوّي بوساطته هذه المقابلة ويعزّزها:

«فما هو إذن سبب تأخّر زيارة القنصل للسراي، أو عدم استقبال الباشا للقنصل؟... الذين يبغضون القنصل، ويتخوّفون منه، يقولون بعبارات جازمة إنّ القنصل، ومنذ اليوم الأوّل، طلب مقابلة الباشا، لكنّ الباشا ردّ بصوت عال: لدينا أمور كثيرة مهمّة، لا تحتمل التأجيل، وبعد أن تنتهي سيأتي وقت القناصل!»[٢].

يبدو أنّ الروائيّ يحاول عن طريق الاهتمام بداود ومقرّ قيادته، أن يخفّف الضوء عن الدور المركزي للقنصلية البريطانية ؛ القنصلية التي كانت مركز نشاطات بغداد والعراق في أيّام الولاة الذين سبقوا داود؛ وبذلك يُظهر تقابلاً واضحاً أمام ما يسمّيه الاستعمار مركزاً. ما نشاهده في نص الرواية هو أنّ الروائيّ، وعن طريق الاهتمام الشامل بالشرق المدفوع للهامش، يحاول ترميم موقع الشرق الأصلي والمستحقّ؛ إذ يخصّص معظم صفحات روايته للشرق —متمثّلاً بالعراقيين-؛ ومع اتّخاذ هذه السياسة النصّية، يتحدّى عمليّاً تهميش الناس في العراق، لذلك يبيّن في البداية تحقير الغرب بالنسبة إلى الشرق، ومن ثمّ يقوم بالدفاع عن الشرق بشكل غير مباشر؛ مثال ذلك ما ورد في الصفحة ٥٦ من الجزء الثاني للرواية إذ يُعدُّ ريتش وزوجته ماري بغدادَ مدينة نائية لا ينتظر الآدمي فيها إلاّ المرضُ والموتُ:

---

[١] - **المصدر نفسه**، ج١، ص٨٦.

[٢] - عبدالرحمن منيف، **أرض السواد**،، ج١، ص٩٥.

«في هذا المكان النائي، والذي لا بدّ أن يؤدّي إلى الموت، أو على الأقل يسبّب أمراضاً لا شفاء منها»[١].

في المقابل، يطرح منيف مباشرة غنى آثار العراق القديمة وتاريخه ليدافع عن الشرق، ويبيّن أنّ العقل الغربي لا يزال يتحيّر أمام عظمة تاريخ الشرق:

«بدت ماري امرأة مختلفة... بعد أن اكتشفت ثمّ فتنت بهذا العالم الواسع والغنيّ»[٢].

إضافة إلى هذه الأمور، يُلاحَظ أنّ الكاتب يهتمّ بالعراق كلّه بوصفه رمزاً للشرق؛ على سبيل المثال، نرى في روايته أنّ الناس في المقاهي يصبحون موضع الاهتمام بقدر ما يتمتّع داود وزملاؤه بهذا الاهتمام، ليست بغداد المركز الوحيد؛ إذ يتمّ الاهتمام بسائر المدن منها البصرة، والمناطق الكردية والشماليّة والجنوبيّة والبدويّة. كما أنّ الأحداث لا تقع في مكان محدود بل يتوسّع نصّ الرواية ليشمل مناطق مختلفة، وهذا يؤدّي إلى أنّ المناطق الفقيرة بوصفها مقرَّ الحكومة تحظى بدور مهمّ ومركزي في الرواية ويجهد الروائيّ بذكاء لأن يتجنّب المركزيّة الجغرافيّة ويوسّع مدى اهتمامه أيضاً إلى المناطق الهامشية جميعها.

قضية التابع (Subaltern)

التابع أي المرتبة الدنيا، مصطلح صناعة أنطونيو غرامشي[٣] للإشارة إلى الفئات التي تقع تحت سيطرة الطبقة الحاكمة[٤]؛ أبرز الدراسات ما بعد الاستعماريّة هي تلك التي اهتمّت "بالتابع"، والتي استلهمت المقاربة الماركسيّة، و"غاياتري سبيفاك"[٥] من أبرز الوجوه التي قامت بهذه الدراسات. انتقدت سبيفاك النصوص الأدبيّة الاستعماريّة التي تهتمّ بالطبقات العليا أو النخب المستعمَرة في حدّ أقصى، وقدّمت سؤالاً: "هل يمكن للتابع أن يتكلّم؟". تهدف سبيفاك من خلال هذا السؤال إلى المطالبة بسماع صوت التابع في النصوص الأدبيّة. كما تخصّص كتابات كثيرة للنساء المستعمَرات اللاتي تزيد أوضاعهنّ سوء بالنسبة إلى الرجال.

وكان التابع مسيطَراً بواسطة النظرة الدونية المسيطرة من قِبل المستعمِر للتابع المستعمَر. «كان الأوروبي حيثما يتدخّل يدفع ابن البلد إلى أن ينظر إلى ذاته بلون من اليأس العامّ الذي يثير الأسى في الواقع، لأنّه

---

١ – **المصدر نفسه**، ج ٢، ص٥٧.

٢ – **المصدر نفسه**، ج٢، ص٥٧.

3 - Antonio Gramsci (1891- 1937).

٤ – يل أشكروفت وآخرون، **دراسات مابعد الكولونيالية**، ص٣١٩.

5 - Gayatri Chakravorty Spivak (1942).

كان يشعر بأنّ أحواله قد ساءت بدلاً من أن تتحسّن، في المجال المعنوي أكثر منها في المجال المادّي الصرف»[١].

نتطرّق في هذا القسم من البحث إلى دراسة أوضاع المهمَّشين أو التابعين والنساء في رواية منيف لنكشف مدى الأهمّيّة التي أعطاها الروائيّ للتابع.

تطالب سبيفاك بتغيير الموقف النظري الذي يقع في مركز اهتمامه صوت المستعمِر أو النخبة من المستعمَر، وتريد الاستماع إلى صوت المستعمَر والمحلّيّ التابع[٢]، كما أنّها تحاول «لفت أنظارنا إلى الأكثريّة الكبيرة المستعمَرة التي لم تترك لها أثراً في التاريخ، لأنّها لم تستطع إيصال صوتها إلى الآخرين أو لم يُسمح لها بذلك»[٣].

من المسائل التي يجب البحث عنها في النصوص الأدبيّة هي قدرة الناس التابعين على التكلّم، والذين يتمّ تجاهلهم عادة. ما يلفت النظر في البداية وربّما أكثر من سائر الخصوصيات الضدّ استعماريّة المتوفّرة في أعمال عبدالرحمن منيف، هو حضور شخصيات كثيرة منتمة إلى أدنى طبقات المجتمع. يختصّ معظم الفضاء الروائيّ لمجرّد سماع آراء هؤلاء الناس العاديين، وإبراز نوعية حياتهم؛ إذ نرى عند كلّ حدث أنّ صفحات كثيرة تُخَصّص لحوارات الناس التابعين؛ نورد مثالاً على ذلك، عندما يقرّر داود إعدام الخونة، يلقى هذا القرار خوفاً لدى الناس. ينشغل الكاتب بعد ذكر هذا الحدث، وبشكل مباشر، بدراسة تأثيره على الناس العاديين والتابعين —في صفحات عدّة ومع ذكر أسمائهم ومهنتهم– ويورد حواراتهم:

"أسطة إسماعيل" حلاّق الحيّ يميل إلى الدعابة، ويرى الجانب المرضي من الحياة أكثر حضوراً من الجوانب الأخرى، فقد ردّ، وكان صوته هادئاً، علّه يدخل الطمأنينة إلى قلوب سامعيه: "نحن برمضان، حجّي، وهذي الأحكام ما راح تتنفّذ، على الأقلّ بهاي الأيّام..."[٤].

في رواية منيف، تُسمع أصوات كثيرة، وعدد شخصيّات الرواية كبير ويتمتّع الجميع بإمكانية التعبير عن النفس والتكلّم. يمكن البحث عن جذور هذا التنوّع في عمق الدراسات مابعد استعماريّة؛ فقد اهتمّ الباحثون بالطبقة الدنيا من الماركسيين، لكنّهم أدركوا أيضاً أنّ إيجاد الطبقات بواسطة الماركسيّة، والاهتمام بالتابعين على أساس الطبقة التي ينتمون إليها يؤدّي إلى عدم إمكانهم لعب الأدوار خارج طبقتهم، وهذا

---

[1] - Fredric Lefevre, *"Une Heure avec Sylvian Levi*," p123- 124.

[٢] – آزاده شاهميرى، **نظريه و نقد پسا استعمارى**، ص١٥٠.

[٣] – وهانس ويلم برتنز، **نظريه ادبى**، ص٢٦٩.

[٤] – عبدالرحمن منيف، **أرض السواد**، ج١، ص١٣٢.

يؤدّي إلى تخفيف الضوء عن هويّتهم، لأنّهم لا يتمكّنون من الكلام إلاّ في إطار الطبقة الخاصّة بهم وبحسب معتقدات كلّ طبقة ومطالبها[١].

الاهتمام بهذه المسألة من قِبل منظّرين مثل سبيفاك، يطرح موضوع التنوّع والكثرة والمفارقة؛ «يجب أن نقول وبإصرار إنّ موضوع التابع المستعمَر لا شكّ في أنّه غير متساو»[٢]. هذا التنوّع والمفارقة يظهران بقوّة في الرواية؛ بحيث إذا أردنا ذكر جميع الأسماء التي تؤدّي دوراً في الرواية، سنواجه قائمة طويلة من الأسماء والشخصيات التي تساهم في زيادة حجم الرواية. أمّا المسألة الأهمّ هي أنّ بعض الشخصيات مثل أسطة إسماعيل وعواد وسيفو وحسّون ونائلة خاتون وروجينا وغيرهم يلعبون أدوارهم كالشخصيات الأخرى التي يمكن اعتبارها رئيسيّة في الظاهر، مثل داود وريتش. كما أنّ الجزء الثالث والأخير من الرواية ينتهي باختصاصه بمحاورات الأفراد التابعة، وبيان حالاتها وأفكارها، وهذا هو الأمر الذي قصدته سبيفاك؛ أي التغيير في الموقف النظري الذي يقع في مركز اهتمام صوت المستعمِر أو الموضوع المستعمَر النخبويّ، واستماع أصوات حُذفت في معظمها من النصوص الاستعماريّة[٣].

توظيف الثقافة المحلية واللهجة الشفهية

«لاتصاغ القومية المعارضة للاستعمار حسب تقليد بسيط، بل أيضاً عن طريق تحديد اختلافها عن الأفكار الغربيّة والحرّيّة والكرامة الإنسانية»[٤]. على أساس هذه العقيدة، ومن الأمور المهمّة الأخرى في الدراسات التي تميّز "التابع"، يمكن الإشارة إلى الاهتمام بالأصوات المحلّية والثقافة الشفهية. «ما يلفت نظر سبيفاك وسائر المنظّرين الذين شكّلوا فريق دراسات حول التابع هو الأصوات المحلّية والثقافة الشفهية التي لا مكان لها بين النُخب والخواصّ المحلّيين ولا تُعرف أهمّية حضورها المؤثّر بشكل صحيح في القرنين التاسع عشر والعشرين»[٥].

تؤدّي الأصوات المحلّية والثقافة الشفهية دوراً مهمّاً في رواية "أرض السواد"، كما ذكرنا سابقاً، فقد خصّص منيف حصّة ملحوظة للاستماع إلى صوت المحلّيين. ومن جانب آخر يستخدم في نصّه الثقافة

---

[١] – يوهانس ويلم برتنز، **نظريه ى ادبى**، ص٢٧١.

[٢] – هانس برتنس، **مبانى نظريه ى ادبى**، ص٢٤٥.

[٣] – آزاده شاهميرى، **نظريه و نقد پسا استعمارى**، ص١٥٠.

[٤] – آنيا لومبا، **الاستعمار ومابعد الاستعمار الأدبيّة**، ص١٩٥.

[٥] – آزاده شاهميري، **نظريه و نقد پسا استعمارى**، ص١٥٣.

الشفهية التي يمكن اعتبار اللهجة أو اللغة المحكيّة من أبرز مؤشّراتها. «تُعدُّ اللغة بمنزلة إحدى مكوّنات الهوية وهي موضع نقاش المفكّرين واهتمامهم في مجال الجغرافيا المستعمَرة ومنظّري أفريقيا والهند والكارائيب وسائر الشعوب والجنسيات المستعمَرة»[١].

«إنّ المناقشات المطروحة عن مسائل اللغة وسياساتها وعملياتها وأشكالها وألعابها في زمن الاستعمار وبعده، وإن خلق تيّارات في مجال المعرفة والحفاظ على اللغة المحلّية واللغة الشفهية والمكتوبة المستعمَرة يكسبان اللغة مكانة خاصّة على أساس أنّها أصل مبدئيّ في تشكيل نظريّة مابعد استعماريّة وتكوينه... كان الكتّاب في المستعمَرات يطالبون بالاستقلال اللغوي بقدر ما ناضلوا بعناد من أجل الاستقلال السياسي والوطني والثقافي والاجتماعي لأرضهم، وبذلوا جهوداً كبيرة في سبيل تحقيق مطالبهم هذه»[٢].

وفي هذا المجال، يطلب عبدالرحمن منيف من مخاطبه، في بداية الرواية، أن يقرأ اللهجة العراقيّة بتأنّ ويدرك معناها:

«أتمنّى على القارىء أن يبذل جهداً من أجل التمتّع بجمال هذه اللهجة»[٣].

يروي الكاتب معظم الحوارات بين الناس العاديين في العراق باستخدام اللهجة العراقيّة. إضافة إلى ذلك، نشاهد في كثير من الأحيان ذكر التقاليد المختلفة للناس المحلّيين، مثال ذلك، المقطع الذي يرد في باب تقاليد وداع المسافر:

«فالعادة أن يجتمع المسافرون فى الخان الكبير عند الفجر، و بعد أن تتمّ صلاة الصبح، يتولّى الإمام قراءة عدد من الآيات و بعض الأوراد المناسبة للسفر، قرأها على ماء فى إناء خزفى، و بعد أن ينتهي يرشّ الماء على المسافرين و الحيوانات و الأمتعة. و حالما تبدأ القافلة بالمسير، مع التهاليل و الأدعية، يتولّى صاحب الخان رمي الإناء الخزفي وراء القافلة، و حين يتحوّل الإناء إلى شظايا، يحرص أهل المسافرين، أو من له بضاعة في القافلة، على التقاط كسرة من الإناء تيمّناً و كفأل حسن»[٤].

لم يتوان الروائيّ أيضاً عن ذكر الأصوات والأغاني الشعبيّة في الرواية، إذ يقدّم للقارىء في أكثر من مكان الأصوات المحلّية التي تُعتبر من ضمن الثقافة الشفهية:

---

[١] – **المصدر نفسه**، ص١٧٣.

[٢] – **المصدر نفسه**، ص١٧٤.

[٣] – عبدالرحمن منيف، **أرض السواد**، ج١، ص١٠.

[٤] – **المصدر نفسه**، ج٢، ص٢٤٤.

«يا عمّي جِتك الشمسْ/ مَگدَرْ أقوم مِنْ حَدبَتي/ يا عمّي جالَك الچَلْبْ/ مَگدَر أقوم مِن حَدبَتي/ يا عمّ جِتك الفَرَسْ/ مَگْدَرْ أَقومْ مِن حَدبَتي/ يا عَمّ جِتْك العروسْ/ نعم.. نعم عيدوها/ يا عمّي ليش تِخَبَّلْتْ/ يا عمّي ليش جَنَّيْتْ!»[١].

إنّ استخدام اللهجة العراقيّة وذكر التقاليد والأغاني الشعبيّة أدّيا إلى أن تتحوّل رواية "أرض السواد" إلى وثيقة لحفظ الثقافة المحلّية التي تُعتبر من المكوّنات البارزة للنصوص مابعد استعماريّة. تقع هذه العملية، نوعاً ما، في التقابل مع اللغة التي يفضّلها الاستعمار، وعدم الاهتمام باللغة المحلّية بخاصّة اللهجات المحكية للبلد.

المرأة المستعمَرة

إنّ مسألة المرأة من الأمور التي تلفت أنظار نقّاد ما بعد الاستعماريّة. كانت سبيفاك ولأوّل مرّة، قد طرحت موضوع حقوق المرأة ودراسة أوضاعها السيّئة مع الاستناد إلى الدراسات النسوية. اعتقدت سبيفاك بأنّ «النساء تمّ تجاهلهنّ وتهميشهنّ بشكل مضاعف. في نسيج الإنتاج الاستعماري لا تاريخ للتابعين، ولا يتمكّنون من التكلّم، لكن يجب القول إنّ النساء التابعات تزداد أوضاعهنّ سوءاً، ويجتاحهنّ ظلّ مظلِم»[٢].

«تُهمَل مقولات كالجنس داخل صيغة أكبر كنظريّة الاستعماريّة أو ما بعد استعماريّة لأنّ هذه النظريّات لا تعير اعتباراً للفروق الجنسيّة في صياغة المقولة الوحيدة المستعمَرة. يعتقد هؤلاء النقّاد أنّ الاستعمار فيما يتعلّق بالنساء تصرّف بشكل مختلف عن الرجال، وارتكب استعماراً مضاعفاً في حقّ النساء؛ والنساء كموضوع استعمارى كنّ موضوعاً للتمييز العامّ. هذا إضافة إلى كونهنّ موضوعاً للتمييز الخاصّ كامراة؛ لذلك ينبغي أن تُلاحَظ هذه المسألة في جميع تحليلات الظلم الاستعماري»[٣].

---

[١] – عبدالرحمن منيف، **أرض السواد**، ، ج١، ص٢٨٢. "يا عمّي جاءت إليك الشمس/ لا أستطيع أن أقوم بسبب حدبة ظهري/ يا عمّي جاء إليك الكلب/ لا أستطيع أن أقوم بسبب حدبة ظهري/ يا عمّي جاءت إليك الفرس/ لا أستطيع أن أقوم بسبب حدبة ظهري/ يا عمّي جاءت إليك العروس نعم.. نعم أعيدوا الكلام يا عمّي لماذا فقدتَ عقلَك!/ يا عمّي لماذا جُننتَ!"

[٢] – يوهانس ويلم برتنز، **نظريه ى ادبى**، ص٢٧٢.

[٣] – آزاده شاهميرى، **نظريه و نقد پسا استعمارى**، ص١٣٤.

إحدى نتائج اهتمام سبيفاك بالفرق بين النساء والرجال في ظروف الاستعمار، هي الاهتمام الخاصّ بالنساء التابعات[١]. فسبيفاك «مع التطرّق إلى النساء المستعمَرات اللاتي باعتقادها تمّ تجاهلهنّ دائماً ولم تصل أصواتهنّ إلى أحد، تتّبع نهجاً نسويّاً وما بعد استعماريّ على حدّ سواء»[٢].

في النصوص الأدبيّة، يتمّ استخدام النساء أحياناً بوصفهنّ وسيلة للدعاية لمصلحة الإيدئوبوجيا السائدة في المجتمع. والملاحَظ أنّ في مواضيع كهذه، تتعرّض النساء عادة لتجاهل حقوقهنّ وحاجاتهنّ. «في النصوص الإنكليزية، يُخصَّص موقع للمرأة يجب عليها فيه أن تعرّف عن الفردية الغربيّة وبشكل ضمني عن الحضارة الغربيّة العليا التي تؤكّد على الحرّيّة الحديثة، في حال أنّ النصوص الهندية تعتبرها تابعاً للوظيفة والتقاليد. وإن كان كلّ من الطرفين يدّعي أنّ المرأة تدافع عنه، لكن في الحقيقة هي نفسها تعاني من عدم سماع صوتها»[٣].

في رواية أرض السواد، لا نجد بنية وقالباً محدّداً مسبقاً للنساء [من أجل دفع الإيديولوجية الرجولية إلى الأمام]، ولا نرى النساء كطبقة منسجمة تُهمَل فيها الفروقات، بل يتعرّف القارىء على شخصيّات مختلفة يختار كلّ منها مسيراً خاصّاً له في الرواية. كما أنّ عدد الشخصيات المؤنّثة كبير في الرواية، ويُسمح لكلّ منها التحدّث، ولعب أدوارها، لا أن تحظى بدور هامشي في الظلّ. على سبيل المثال في الصفحة ١٢٠ من الجزء الثاني للرواية قُتلت امرأة راقصة تُدعى نجمة. والجدير بالملاحظة أنّ الكاتب يتطرّق إلى تفاصيل قتلها في وقت يجري فيه حدث آخر قد يكون أهمّ من واقعة قتلها، وهو مؤامرة أحد أصدقاء داود باشا باسم سيّد عليوي، ويُتَوقَّع أن يتمّ تجاهل قتل هذه المرأة الذي قد يُعدُّ قليل الأهمّيّة في الظاهر، إلاّ أنّ الكاتب يعتني بالنساء بشكل متساو مع الرجال، طوال الرواية.

يهتمّ الكاتب كثيراً بالمرأة التي تعيش في المجتمع الرجولي وتفقد قسماً من هويّتها وقدرتها لهذا السبب، وهي المرأة المستعمَرة في مجتمعها؛ يختلق شخصيات متعدّدة من هذا الجنس، ويخصّص صفحات كثيرة لأفكارها وتصرّفاتها ومطالبها. يجب القول إنّه على الرغم من أنّ المجتمع المطروح في الرواية مجتمع رجوليّ، فإنّه لا يمكن أن نتوقّع من الرواية التي تروى قصصها عن العراق في القرن التاسع عشر أن ترفع صوتها في الدفاع عن الحرّيات المدنية والسياسيّة للمرأة؛ لأنّه في ذلك الوقت لم تكن النظريّات المدافِعة عن حقوق المرأة، قد تشكّلت بعدُ، حتّى في الدول المتقدّمة. بناء على ذلك، أقصى ما يمكن للكاتب فعله هو أن

---

[١] – يوهانس ويلم برتنز، **نظريه ادبى**، ص٢٧١.

[٢] – آزاده شاهميري، **نظريه و نقد پسا استعمارى**، ص١٣٩.

[٣] – يوهانس ويلم برتنز، **نظريه ادبى**، ص٢٧٢.

يمكّن امرأة العالم الثالث في القرن التاسع عشر من أن تتحدّث في إطار بيئتها المحدودة، وتتمثّل في شخصيات كثيرة في الرواية.

تحظى المرأة في الرواية بفرصة التحدّث، وليست جنساً ضعيفاً أو قليل الأهمّية، كما أنّه تمّ الدفاع عن تقاليدها وثقافتها الشرقيّة. يسمح الروائيّ لجميع النساء، من دون جعلهنّ في طبقات، ومع حفظ تنوّعهنّ واختلافهنّ، أن يلعبن أدوارهنّ ويبتعدن عن موقع التابع؛ مثال ذلك أنّه يخصّص عشر صفحات من الرواية لفتاة صغيرة تُدعى "محسنة" وهي مشلولة وتتلعثم، إضافة إلى خادمة باسم "نائلة خاتون". "يرد ذكر هاتين الشخصيتين في صفحات أخرى أيضاً، إلاّ أنّ الصفحات المذكورة تختصّ بهما من دون غيرهما[١].

الكاتب، يسمح للنساء، من دون أيّ تعريف مسبق لهنّ، أن يقمن بتعريف أنفسهنّ عن طريق حواراتهنّ وقراراتهنّ، كما أنّنا لا نراه يتطرّق إلى الميزات النفسيّة للمرأة أو لميزاتها الأخرى قبل دخولها إلى الرواية، بل يعرض أفكارها وعاداتها من كلامها هي.

استغلال مصادر الشرق والسيطرة عليها

مفهوم السيطرة والهيمنة يُعدُّ من المكوّنات المهمّة التي يعتني بها نقد ما بعد الاستعماريّة. ابتكر هذا المصطلح "أنطونيو غرامشي" في العقد الثالث من القرن العشرين؛ أي في فترة كان يبحث عن أسباب انتشار سيطرة الحكومة على الناس. يعني هذا المصطلح في الأساس قدرة الطبقة الحاكمة في إقناع سائر الطبقات على أنّ مصالح الطبقة الحاكمة هي نفسها المصالح العامّة[٢]. إنّ الأدب والنصوص الأدبيّة من أبرز وسائل تطبيق السيطرة؛ الأمر نفسه الذي قامت به بريطانيا من أجل السيطرة على الهند ونقل الثقافة الأوروبيّة إليها عن طريق النصوص الأدبيّة —ومن دون أن تجرح أحاسيس الهنديين-[٣].

في هذا القسم نبحث عن استراتيجيّة عبدالرحمن منيف في مواجهة السيطرة الغربيّة، فنشاهد موضوع السيطرة في الصفحات المختلفة من الرواية؛ على سبيل المثال، نرى ريتش يمشي في شوارع بغداد، وترافقه حيوانات نادرة جلبها من الهند، ويعرضها في الشوارع، ولم يسبق للسكّان المحلّيين أن رأوا مثلها[٤]. يحاول

---

[١] – عبدالرحمن منيف، **أرض السواد**، ج١، ص٢٣٨– ٢٤٨.

[٢] – بيل أشكروفت وآخرون، **دراسات مابعد الكولونيالية**، ص١٩٧.

[٣] – **المصدر نفسه**، ص١٩٨.

[٤] – عبدالرحمن منيف، **أرض السواد**، ج ١، ص٢٦٣.

ريتش أن يُظهر أنّ الحكومة البريطانية تجلب النشاط للسكّان المحلّيين وتهديهم الحضارة: "سعادة القنصل يتمنّى لأهل الولاية جميعهم الصحّة والبهجة والموفّقيّة"[١].

يتمّ هذا العمل في الوقت الذي يحتاج الشعب العراقي إلى مساعدة بريطانيا في تثبيت الأسعار، ومواجهة الآثار المخرّبة لفيضانات نهر الفرات أكثر من حاجته إلى مشاهدة الحيوانات النادرة. إضافة إلى ذلك، نرى وسطاء بريطانيين يعتنون باكتشاف الآثار العراقيّة القديمة، ويحاولون استخدام المحلّيين في هذا المجال، ويخدعونهم بالأموال:"المال قادر على فتح الأبواب المغلقة، وبإمكانه اختراق الحواجز والستائر ومعرفة أدقّ الأسرار[٢].

يحاول هؤلاء إقناع المحلّيين بأنّ بريطانيا تفكّر بمعيشة الشرقيين وإحياء الحضارة الشرقيّة وتاريخها المشرق. لكن سرعان ما يكشف الكاتب عن حقيقة الأمر ويقول إنّهم يعتقدون بأنّ الشرق لا يعرف معنى هذه الآثار وقيمتها؛ إذ تستعيد هذه الآثار مكانتها الأصلية في الغرب:

"أثر مثل هذا لايمكن أن يترك في هذا المكان الموحش، وأن يكون تحت تصرّف شعب متخلّف لايفهم ولايقدّر ما لديه"[٣].

وفي مقطع آخر، يعترف رجال ريتش بأعمال الهيمنة والسيطرة هذه وضرورتها: "أن نسيطر عليهم من الداخل، والخطوة الأولى: أن نفهمهم، أن نروّضهم بالتدريج، أن نجعلهم يفعلون ما نريد وبظّنهم أنّهم يفعلون ما يريدون!"[٤].

يدرج الروائيّ، ردّة فعل داود، بعد ذكر مواقف السيطرة التي أدّت إلى أن يقتنع العراقيّون بأنّ الحكومة البريطانية تنظر إلى مصلحتهم. يرسل داود قطيعين من الغزلان النادرة المحلّية إلى ريتش معبّراً عن مواجهته له:

"أرسل هدية للباليوز، وهي عبارة عن مجموعتين من الغزلان، مجموعة من الغزلان الصحراوية، والثانية من غزلان الجبال. وكان يعرف أن الباليوز لايملك مثلها"[٥].

---

[١] – **المصدر نفسه**، ج ١، ص٢٧٢.

[٢] – **المصدر نفسه**، ج ٢، ص٨٤.

[٣] – **المصدر نفسه**، ج١، ص٨٩.

[٤] – **المصدر نفسه**، ج١، ص٤٠١.

[٥] – عبدالرحمن منيف، **أرض السواد**، ج١، ص٢٩٧.

أراد داود بعمله هذا تذكير ريتش بأنّ الحيوانات النادرة موجودة في العراق أيضاً، ولا حاجة لدى العراقيين لمشاهدة الحيوانات النادرة، بل هم يحتاجون إلى السلع الأساسيّة. يبذل داود جهوداً في سبيل ترتيب أوضاع السوق وتثبيت أسعار السلع؛ إذ يتبيّن طوال الرواية أنّ بريطانيا هي التي تكمن وراء نقص الموادّ وغلائها عن طريق منعها السفن من تقديم الخدمات:

"بعث حاكم البصرة، ناظم أفندى، رسالة إلى الباشا يبلّغه فيها أنّ المراكب انقطعت، وأنّ تايلور، وكيل ريتش في البصرة، هو سبب في انقطاعها"[١].

إضافة إلى أنّ الرواية تُظهر لنا أنّ الاستعمار يجهد لاستغلال مصادر الشرق عن طريق أعمال السيطرة والهيمنة، نجد موضوعاً آخر هو أنّ محاولات الدولة الاستعماريّة هي في شرعنة الثقافة الغربيّة؛ لأنّ الاستعمار الثقافي يُعدُّ طريقاً آخر للسيطرة على المستعمَرة. بناء على ذلك، نشاهد هذا التصرّف من قِبل القنصلية البريطانية في بغداد، عندما يُقام الاحتفال والألعاب الناريّة وتُلفَت أنظار الناس إليها إلى حدّ عدم سماع صوت الأذان وعدم إقامة صلاة الجماعة:

"... فوّت الصلاة على الكثيرين، لأنّهم لم يسمعوا الأذان، ولم ينتبهوا له!"[٢].

داود إنسان ملتزم بالهوية والثقافة العربيّتين، وناضل ضد استراتيجيّة الاستعمار هذه، ويسعى بذكائه لمواجهة ريتش والنضال أمامه:

«عليّ أن أحاربه هنا وليس فى مكان آخر»[٣].

يرى داود بتعبيره الرمزي أنّ الالتزام والعودة إلى المصادر الأصيلة للثقافة المحلّية ضروريّان للمواجهة، ويعتقد بأنّ عدم العودة لهذه المصادر يسبّب الموت التدريجي للسكّان المحلّيين:

«الأسماك في محاولتها العودة إلى الينابيع، وحين تعجز، رغم ماتبذله من جهد، فإنّها لا تموت دفعة واحدة، بل ترفع رؤوسها فوق الماء، وتظلّ تنوح وتبكي بصوت عالٍ ولأيام متواصلة، ثم تقرّر أن تنتحر، تخرج إلى اليابسة.. وهناك تموت»[٤].

يكشف الكاتب عن تصرّفات الهيمنة والسيطرة الخادعة لبريطانيا عن طريق النصّ الأدبيّ، ويسعى لإعادة صياغة الحقيقة بواسطة الكتابة. وبكشفه عن أعمال الهيمنة للدولة البريطانية، يشير إلى أنّ العراق

---

[١] - **المصدر نفسه**، ج٣، ص٢٤٠.

[٢] - **المصدر نفسه**، ج١، ص٢٧٥.

[٣] - **المصدر نفسه**، ج١ ص٢٩٦.

[٤] - **المصدر نفسه**، ج ١، ص٣٠٤.

يمكنه حلّ مشاكله بمساعدة شخصيات مثل داود، وله القدرة على أن يتغلّب على صعوبات فترة مابعد الاستعمار من دون أيّ وصيّ أو مشرف، ولا حاجة له إلى الغرب؛ هذا الموضوع –مواجهة السيطرة– إلى جانب موضوعات أخرى يجعل "أرض السواد" رواية تواجه الاستشراقيّة.

النتيجة

لقد صوّر منيف صورة دقيقة عن أوضاع الشرق وبالتحديد المواجهات والتقابلات بين الشرق والغرب، متجسّداً عبر مفاهيم ومحاور مختلفة. إذن أُلّفت رواية "أرض السواد" متأثّرةً بالتجربة البيئيّة للكاتب وهي مأخوذة من الأوضاع السياسيّة والاقتصادية والاجتماعية والثقافية للمجتمع العراقي، الأمر الذي يمكن تعميمه على المشرق كلّه.

١. بما أنّ تيّار الاستشراق كالاستعمار، في رأي منيف، يشمل جميع مناحي حياة الشرقيين، فيجب اتّخاذ المواجهة التقابلية لذلك بذكاء؛ لهذا السبب يمكن إيجاد هذه العناصر في المسائل العامة لحياة الإنسان الشرقي، وقد استخدم منيف معظم هذه العناصر.

٢. من المكوّنات الرئيسيّة للرواية استخدام وسائل متعدّدة لبيان أهداف الكاتب. سعى الروائيّ لاستخدام الضروريّات اللغوية إضافة إلى السياق الدلالي في سبيل تحسين التصوير التقابلي لتيّار الاستشراقيّة الاستعماريّة. تظهر هذه الوظيفة خاصّة مع تأصيل اللهجة العراقيّة واستخدامها في النصّ.

٣. لا يرى منيف نفسه في الرواية، مكلَّفاً بالتبعية للأنماط الغربيّة في مجال النقد والنظريّة، بل يتّبع دائماً قراءته الخاصّة؛ على سبيل المثال، يُتوقّع من منيف بوصفه مثقّفاً معاصراً، تأييد تيّار النسوية، فهو يصوغ هذه النظرة بناء على فهمه الخاصّ؛ لذلك نرى أنّه لا يقدّم في روايته صيغة وقالباً مسبقاً للدفاع عن حقوق المرأة.

٤. رواية "أرض السواد" بسبب كونها مأخوذةً من الأحداث الواقعية للمجتمع العراقي في مواجهة الغرب، يمكنها إظهار وظيفة الفنّ والأدب في ترسيم المجتمع تاريخيّاً. ولهذا السبب يجب عدّ هذه الرواية أثراً فنّياً– تاريخياً.

قائمة المصادر والمراجع

المصادر العربيّة:

١. أشكروفت، بيل و جاريث جريفيث و هيلين تيفين، **دراسات ما بعد الكولونيالية**، ترجمة: أحمد الروبي و أيمن حلمي و عاطف عثمان، الطبعة الأولى، القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٠.

٢. جرار، ماهر، **عبدالرحمن منيف سيرة وذكريات**، الطبعة الأولى ، بيروت: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٥.

٣. راغب، نبيل، **موسوعة النظريّات الأدبيّة**، الطبعة الأولى، بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، ٢٠٠٣.

٤. الزغبي، أحمد، **مقالات في الأدب و النقد**، الطبعة الأولى، إربد: مكتبة الكتاني، ١٩٩٣.

٥. صالح، ابراهيم، **أزمة الحضارة العربيّة في روايات عبدالرحمن منيف**، بيروت: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٤.

٦. قشعمي، محمد، **ترحال الطائر النبيل**، بيروت: دار الكنوز، ٢٠٠٤ .

٧. لومبا، آنيا، **في نظريّة الاستعمار ومابعد الاستعمار الأدبيّة**، ترجمة: عبدالغني غنوم، الطبعة الأولى، اللاذقيّة: دار الحوار للنشر والتوزيع،٢٠٠٧.

٨. منيف، عبدالرحمن، **أرض السواد**، المجلّد الأول، الطبعة الثانية، بيروت: المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع، ٢٠٠٠.

٩. ---------، **أرض السواد**، المجلّد الثاني، الطبعة الأولى ، بيروت: المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي للنشر و التوزيع، ١٩٩٩.

١٠. --------- ، **أرض السواد**، المجلد الثالث، الطبعة الثانية، بيروت: المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع، ٢٠٠٠.

١١. --------- ، **ذاكرة المستقبل**، الطبعة الثالثة، بيروت: المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع، ٢٠٠٣.

١٢. النابلسي، شاكر، **مدار الصحراء: دراسة في أدب عبدالرحمن منيف**، الطبعة الأولى، بيروت: المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، ١٩٩١.

الدوريات العربية:

١٣. أحمدي ملايري، يدالله، **صورة الآخر العربي والفارسي في الروايتين الفارسيّة والعربيّة: أحمد محمود وعبد الرحمن منيف نموذجاً**، طهران: مجلّة الأدب العربيّ لجامعة طهران، الرقم الثالث، ١٣٩٠ ش، صص:٣٦٣-٣٨٦.

١٤. شبستري، معصومه وصاعدي، أحمد رضا، **البناء الفنّي في خماسيّة مدن الملح الروائيّة لعبدالرحمن منيف**، طهران: مجلّة الأدب العربيّ لجامعة طهران، الرقم الثاني، السنة الثالثة، ١٣٩٠ش، صص:١-٢٨.

المصادر الفارسيّة:

١٥. آل‌احمد، جلال، **غرب‌زدگی**، چاپ دهم، تهران: فردوس، ١٣٨٦.

١٦. امینی، علی اکبر **گفتمان ادبیات سیاسی ایران**، چاپ اول، تهران: سیرنگ، ١٣٨٠.

١٧. برتنس، هانس، **مبانی نظریه‌ی ادبی**، مترجم: محمدرضا ابوالقاسمی، چاپ سوم، تهران: نشر ماهی، ١٣٩١.

١٨. برتنز، یوهانس ویلم، **نظریه‌ی ادبی**، مترجم: فرزان سجودی، چاپ اول، تهران: آهنگ دیگر، ١٣٨٢.

١٩. رایان، مایکل، **درآمدی بر نقد**، مترجم: سارا کاظمی‌منش، چاپ اول، تهران: آوند دانش، ١٣٩٢.

٢٠. سعید، ادوارد، **شرق‌شناسی**، مترجم: عبدالرحیم گواهی، چاپ اول، تهران: دفتر نشر فرهنگ اسلامی، ١٣٧١.

٢١. سلدن، رامان و پیتر ویدوسون، **راهنمای نظریه‌ی ادبی معاصر**، مترجم: عباس مخبر، چاپ پنجم، تهران: طرح نو، ١٣٩٢.

٢٢. شاهمیری، آزاده، **نظریه و نقد پسااستعماری**، چاپ اول، تهران: نشر علم، ١٣٨٨.

٢٣. کلیگز، مری، **درسنامه نظریه ادبی**، چاپ دوم، ترجمه: جلال سخنور و دیگران، تهران: اختران، ١٣٩٤.

٢٤. گاندي، ليلا، **پسا استعمارگرایی**، مترجمین: مریم عالم‌زاده و همایون کاکاسلطانی، چاپ دوم، تهران: پژوهشکده مطالعات فرهنگی و اجتماعی، ١٣٩١.

الدوريات الفارسية:

٢٥. گنجعلي، عباس واحمد نيا، سيد محمد، **كاركرد انتقادي درون‌مايه در رمان فرجام‌ها اثر عبدالرحمن منيف**، مجله انجمن ايراني زبان و ادبيات عربي،شماره٣١، ١٣٨٣، صص٦٥-٨٨.

المصادر الأجنبيّة:

26. Lefevre, Fredric, "*Une hqure avec Sylvian Levi*," in Memorial sylvian levi, ed. Jacques Bacot, Paris: Paul Hartman, 1937, p 123-124.

27. Said, Edward W., *Orientalism*, Vintage book, New york, 1979.

28. Tromans, Nicholas, and others, The Lure of the East, British Orientalist Painting, 2006, Tate publishing.

رویکرد شرق‌شناسی استعماری رمان «أرض السواد» عبدالرحمن منیف

فاطمه پرچگانی* وفرهاد رجبی** ومیلاد درویشی***

چکیده:

جریان شرق‌شناسی، به عنوان یکی از نمودهای ارتباطی شرق با غرب، صرفنظر از خدماتی که در راستای شناسایی مشرق زمین ارائه می‌دهد، اهداف سلطه‌جویانه و گاه استعماری را نیز در پی داشته است؛ به همین دلیل شرق‌شناسی استعماری، ترکیبی است آشنا برای بسیاری از روشنفکران و نویسندگان شرقی که دغدغه هویت داشته برآنند تا با بحران موجود به مقابله پردازند.

در پیش گرفتن وجه تقابلی در برابر شرق‌شناسی استعماری در اشکال مختلف صورت می‌پذیرد که یکی از مهم‌ترین آن، استفاده از امکانات ادبیات و به ویژه رمان است. رمان «أرض السواد» (سرزمین سیاهی) از جمله مصادیق این رویارویی است که در طی آن، «عبدالرحمن منیف» به عنوان یک نویسنده آگاه شرقی می‌کوشد با ترسیم فضای مناسب، ضمن حفظ چارچوب هنری قضیه، حوادث و شخصییت‌ها را به گونه‌ای طراحی کند که طرفین استعمارگر و استعمار زده فرصت حضور یافته و در نهایت اهداف استعمارگر و رویکرد تقابلی استعمارزده نیز طرح گردد. در این رمان «ریچ» نماینده غرب استعمارگر و «داودپاشا» نماینده شرق استعمار زده است.

نتیجه این نوشته نشان می دهد جریان استعماری، در صورتی که با آگاهی و رویکرد تقابلی مناسب در جامعه مشرق زمین، همراه گردد، در تحقق اهداف توسعه طلبانه و هژمونی خود توفیق نخواهد یافت.

کلیدواژه‌ها: استعمار، شرق، عبدالرحمن منیف، وجه تقابلی، أرض السواد.

---

* - استادیارگروه زبان‌وادبیات‌عربی دانشگاه خوارزمی،ایران. (نویسنده مسؤول) fparchegani@gmail.com

** - دنشیار گروه زبان و ادبیات عربی دانشگاه گیلان، ایران. farhadrajabi133@yahoo.com

*** - کارشناس ارشد گروه زبان و ادبیات عربی دانشگاه خوارزمی، تهران، ایران.

تاریخ دریافت: ۱۳۹۵/۰۶/۰۸هش= ۲۰۱۶/۰۸/۲۹م | تاریخ پذیرش: ۱۳۹۶/۰۳/۰۷هش=۲۰۱۷/۰۵/۲۸م

Colonial Orientalism in Abdulrahman Munif's Novel Ard As-Sawaad

Fatimeh Barchegani, Assistant Professor, Kharazmi University, Iran,

Farhad Rajabi, Associate Professor, Gilan University, Iran,

Milad Darvishi, M.A. Student of Arabic Language and Literature, Kharazmi University, Iran

Abstract

Orientalism, apart from being an attempt to introduce "the Orient", and a manifestation of liaison between the East and the West, also has aimed to control and colonize. Therefore ‹Colonial Orientalism is a familiar term for the educated eastern writers, who are concerned about identity issues and work for resolving them. Confronting colonial orientalism happens in various forms, the most important of which is exploiting the potentials and possibilities available in literature, especially in novels. The novel *Ard As-Sawaad* (the Land of blackness) is an example of this confrontation in which Abdulrahman Munif attempts to create events and characters that portray a picture of the colonizing and the colonized in a way that the artistic features of the work are also preserved. Munif reminds the readers of the goals of colonization and how the people of the Orient confront those goals. Rich symbolizes the Colonizing West and Dawood Pasha represents the Colonized East. The conclusion which can be drawn is that colonizing forces would never succeed in their domineering goals if they are resisted by Easterners who are cognizant and knowledgeable and take sensible action.

Keywords: Orientalism, East, Colonialism, Abdulrahman Munif, Resistance, *Ard As-Sawad*